مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٠ (العددان ١و٢) ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م

التوتّر الشعريّ في قصيدة النثر

الدكتور سمير كجو
أستاذ مساعد في
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة تشرين

يوسف حامد جابر
طالب الدراسات العليا في
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة تشرين

يعد التوتر الشعريّ من أبرز المظاهر التي تتميز بها لغة النص في القصيدة الحديثة . ويفيد في كون بناء النص بناء مشدوداً ،يعمل على تعميق التواصل الداخلي بين الأطراف التي يتحرك داخل اطارها ، وعلى خلق يقظة تامة لديها ، وذلك بما يتوفر له من خصائص بنائية تخص طبيعة التشكيل ،وطبيعة العلاقة التي تحكم مسار العناصر داخل البنية ؛ وهو مسار لايتصف بالخيطية ،وانما يخضع لتقاطعات البنية ذاتها ،مما يمهد لظهور تعددية دلالية غير مستقرة ،تتحرك في فضاء النص ،مكونة فيه حركات متميزة .

وقد حاولنا في هذه الدراسة أن نبرهن على هذه الظاهرة من خلال ثلاثة نصوص شعرية لـ" محمد الماغوط ، أدونيس ، أنسي الحاج " متناولين في هذه البرهنة تجليات التوتر داخل البنية مشيرين ،في الوقت ذاته ،الى التحولات التي تحكم حركتها ،من كونها تعمق حس التوقع عند المتلقي ،وتعمل على خلق عنصر الدهشة لديه ؛ الأمر الذى يساعد على وضع مختلف العماليات الداخلة في مجال النص ،في جو شعري حقيقي .

ان التوتر الشعري يشكل البؤرة الانفعالية التي لايخضع لها الشاعر أو المستوعب بطريقة عادية . وأقصد بكلمة " عادية " كل مايتفرع عنها من تداع وحلم وانسيابية . وانما توقظه ،تثيره ،تهز كيانه ، بمعنى آخر ،تصدمه ، بما تحمله من شحنة توترية ،يقوم أساسها على محورين : محور الذات الشاعرة المتأثرة . ومحور الموضوع . والعلاقة القائمة بينهما ، اما أن تكون علاقة توافق وانسجام ،واما أن تكون علاقة تنافر وخصام . وعلى محور هذه العلاقة وما يتفرع عنها ،والتي تخضع للشد والجذب ،تكمن مسافة التوتر النابعة من بنية النص الشعري ،ومن مختلف الرؤى والمواقف المتمثلة بعلاقة الشاعر بالعالم؛ هذه العلاقة تلخص ،في النهاية ، أبرز معطيات التجربة الانسانية ؛ وتتفاوت معطيات هذه التجربة المشتركة حسب رؤى الشعراء . فمنهم من يشير اليها من خلال نفسه ،باعتباره محورا لعلاقة ذات خصوصية متميزة . ومنهم من يشير اليها من خلال مجموعة من العلاقات القائمة أو المتصورة في المجتمع . وفي كلتا الحالين يمكن أن تلامس كل علاقة الأخرى ،بشكل يدل على الصلات الخفية التي تصل بين

الموجودات . كما يتضمن النص ،حامل الشحنة التوترية ،من خلال علائق البنية المتشكلة فيه ،مختلف الاحتمالات التي تدفعها الينا هذه الصلات أو تلك . وهي احتمالات تحدد ،في النهاية ، أبعاد التجربة الشعرية الجديدة ، من كونها تجربة متكاملة تهدف الى اغناء الكونين : الشعري والانساني ، والتعبير عما تطرحه علاقة كل منهما بالآخر .

يقول الشاعر محمد الماغوط :

"..لاشيء يربطني بهذه الأرض سوى الحذاء
لاشيء يربطني بهذه المروج
سوى النسيم الذي تنشقته "صدفة" فيما مضى
ولكن من يلمس زهرة فيها
يلمس قلبي . "(1)

نحاول أن نكتشف تجليات " التوتر" داخل تحولات النص الشعري ، اذ ان هذه التحولات هي التي تسمح لمسافة التوتر بالتبلور ،من جهة ،كما تتيح لنا ،أيضا ،معرفة طبيعة هذه المسافة ،والمعاني التي تقف وراءها .

فالنص ينقسم ، أولا ،الى ثنائية ضدية واضحة ، يحدد الطرف الأول منها الموقف السلبي الذى يواجه الشاعر به واقعه ،بينما يحدد الطرف الثاني ،الموقف الايجابي من الواقع نفسه ،وبين الطرفين تكمن مسافة التوتر ، أو ما يمكن أن نسميه " الفجوة الدلالية" التي تتسع لها الثنائية ،فتحدد طبيعة المفارقة الحاصلة بين دلالات النص من جهة ،وبين هذه الدلالات مجتمعة ،وبين الشاعر ،باعتباره شخصية ذات كيانين: ذاتي واجتماعي ، يحددان ،في النهاية ، مختلف العلائق الخفية التي تتدخل في تكوين النص والمفاهيم التي يطرحها .

نحدد عناصر النص الرئيسية في طرف الثنائية :

١ - الأرض + المروج + النسيم .

٢ - زهرة " زهور " + قلبي" قلب الشاعر".

نلاحظ أن عناصر الثنائية جميعا انما تتسم بالعطاء والتجدد ، اذ لاصفة سلبية يمكن أن ينعت بها أي من العناصرالمذكورة؛ فالأرض هي الوطن ،مصدر الخير والنماء،وهي حاضنة الشاعر ، ينمو فيها ،ويعيش على خيراتها ،ويتنقل في جبالها ووهادها، وصفتها التي دل الشاعر اليها هي"الخصب"، مما تدل عليه المفردات اللاحقة لها : المروج،النسيم ،وكلاهما نتيجة طبيعية لخصوبة الأرض ؛ وبالتالي ،فهما يؤكدان الصفة الايجابية لمفردة " الأرض" وما من قيم تصر على الحياة . وتدل مفردة " الزهرة في الطرف الثاني، أيضا ،على القيمة المعنوية للأرض ،من كونها ربيعا دائما متجددا ،تستتبع قيمة مادية أخرى. كما تدل مفردة " القلب " باعتباره عنصرا رئيسا في جسم الانسان ،يقوم ،بما له من دور فعال في تأصيل الحياة داخل هذا الجسم ،على الخصوبة التي تنبثق عنه ،من كونه مؤكد الحياة ، مضافا ،الى ذلك ، المعاني الأخرى التي اكتسبتها هذه المفردة خلال رحلة الانسان الطويلة التي تدل أيضا على أهميته وفعاليته الكبيرتين. اذن ،في تحديد عناصر طرفي الثنائية ، نلاحظ اتفاقا عاما يجمع بينهما ؛ وهذا الاتفاق هو الذي يطرح المفارقة الضدية داخل السياق ،ويسعى لتأكيدها ، في الوقت نفسه الذي يظهر هذه المفارقة ،ثنائية قائمة على الاختلاف داخل الكيان الواحد ، غير قابلة للتوحد ؛ بذلك ،تبدو حركة العناصر الداخلية ،حركة معقدة ،تسمح لمسافة التوتر بالنمو كي تكتسب شحنتها المتولدة عنها صبغة انفعالية أكبر .

نحاول توضيح ذلك :

في الطرف الأول من الثنائية الضدية بدا نوع من القطيعة بين الشاعر والواقع ممثلا بالأرض " الوطن "؛وهي قطيعة تثير التساؤل أوحت بها خسة العلاقة التي أعلن عنها واسفافها . فالشاعر ينفر من الوطن ، وينفي أية علاقة معه نفيا تاما ؛ ويظهر التضاد جليا بينه وبين الوطن من خلال المعنى الظاهري الذي يدفعه الجزء الأول من الثنائية العامة . غير أننا ندرك ، اذا تمهلنا قليلا في تبين العلائق الأكثر جوهرية ، أن ثنائية مضمرة استبطنت سياق هذا الجزء ،ومعناها يعاكس المعنى الخارجي المنوه عنه للجزء نفسه؛ اذ ان علاقة التضاد تشير الى عدم الرضى عن الواقع ، وعدم الرضى هذا يفترض دفع الشاعر لنعت هذا الواقع بنعوت سلبية تدعم سلوكه وتبرز موقعه ازاءه ،فالشاعر والواقع نقيضان . والعلاقة بينهما علاقة معارضة :

الشاعر ≠ الواقع

غير أن هذه المعارضة لاتنتج صفات تنسجم معها ضد الواقع ، وانما تظهره ايجابيا ممتلئا غنى وحيوية ، مما تدل عليه مفردات" الأرض ،المروج ،النسيم " والتي هي تجليات نضرة لهذا الواقع ، وباعثة على خصوبة عالمه ، مما يفسح المجال بالتشكل لعلاقة أخرى بين الشاعر والواقع ،مخالفة للأولى. وهنا تكمن الثنائية الجديدة التي تسكن الأولى وتعاكسها .

ويبين الرسم التالي كلتا العلاقتين :

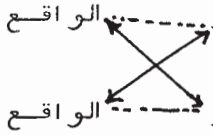

فالشاعر يعارض الواقع تبعا للمستوى السطحي الذي تفرزه بنى النص من خلال الصيغ الكلامية الصريحة ، في الوقت الذي يبدو أن علاقة تقدير ضمنية تجمع بينهما ،يحددها المستوى الداخلي لعلائق هذه البنى ، وبالتالي ،تعمل هذه الثنائية الضمنية " المتوحدة " بفجوتها الدلالية التي تتسع لها ،على تحريك مشاعرنا ،وتحفيزها ، للوصول الى طبيعة العلاقة النهائية بين الشاعر والواقع ،والذي يحددها الطرف الثاني من الثنائية العامة :

ولكن من يلمس زهرة فيها
يلمس قلبي

اذ يؤكد هذا الجزء على أن " الأرض " تشكل بالنسبة الى الشاعر آصرة حب حقيقية ،غير قابلة للمساومة . لابل انها تعد بمثابة دفقة الحياة التي تنعش جسده، والنسغ الذي يحيا من خلاله ،وبالتالي،فهي تمنحه قوة الوجود ؛ وأن أي مساس بها هو جرح مميت في قلبه . وهنا تبدوالثنائية الضدية أكثر وضوحا ،حيث تساعد الصياغة الأخيرة على تعميق الاختلاف القائم بين العبارات المتنافرة ،ويمهد انتقال النص من نفي العلاقة نفيا تاما الى اثباتها بصورة التناقض المبينة ،للدخول الى عالم الشاعر ،وتحديده كعالم منفصل عن عالم الواقع ومستقل عنه أولا ،ثم كعالم يشكل مع الواقع توءما لاينفصل ثانيا .

ان هذا الانتقال بين النقيضين يسهم في توضيح العلاقات المتشكلة بين بنى النص ،وفي تدعيم الفاعلية الشعرية التي يقوم جوهرها على " خلق فجوة دلالية – وجودية ،خلق مسافة للتوتر بين معطيات التجربة الانسانية "(٢) كما يسهم أيضا في معرفة طبيعة العلاقة بين الشاعر والواقع، من كونها علاقة غير متكافئة ،تضغط على الشاعر ،وتعمد الى ابعاده عن ممارسة دوره الذي يرغب بأدائه ؛ فهو منفصل عن

الواقع (الأرض/ الوطن) ومتصل به . ان طبيعة هذه العلاقة تكشف عن شخصية الشاعر الذي يعيش حالة قصوى من الاغتراب عن المجتمع؛ والا بماذا تفسر الزخم العاطفي الكبير الذي أراد به تهميش علاقة التضاد الحادة ،وتنحيتها ،عاكسا ،في الوقت ذاته ، أعلى مستويات الشعور الوجداني لديه ، كشعور يشكل مع الواقع طبيعة واحدة .

وعودة ثانية لعناصر الثنائية تؤكد هذه القضية .

١ ـ عناصر علاقة التضاد :

لاشيء يربطني بهذه " الأرض "سوى الحذاء ← الأرض / الواقع = معطى طبيعي .

لاشيء يربطني بهذه "المروج "

← المروج = معطى طبيعي .

سوى " النسيم " الذى تنشقته صدفة ـ فيما مضى ← النسيم = معطى طبيعي

ان نقطة الخلاف تنبع من كون العلاقة القائمة بين الشاعر ومعطيات الحياة الأخرى هي علاقة انفصال لاخيار في الرجوع عنها. وتستتبع هذه العلاقة احتمالات ،تفيد في مجموعها أن الواقع" المجتمع" غير معافى، وبالتالي فانه يقاوم رغبة الشاعر في التدخل لاصلاح مافسد فيه ،ويرفضها أيضا . وهذا قيد للشاعر لايستطيع منه فكاكا ؛ وتبدو الفجوة التي تفصل بينهما غيرقابلة للالتحام .

٢ ـ عناصر التحول :

ولكن من يلمس " زهرة " فيها

← زهرة = معطى طبيعي .

يلمس " قلبي " ← قلب

= معطى إنساني .

تتوحد في هذه العلاقة العناصرالطبيعية والعناصر الانسانية ؛ ويشكلان وحدة متكاملة غير قابلة للانفصال . ان هذا التحول يشير الى القلق الذي يهيمن على الشاعر ،والى الهم الكبير الذى يكابده ، مما جعل الاضطراب سمة رئيسة تتناهبه ،وربما كان ذلك ناتجا عن عمق الشعور بالوحدة داخل مجتمع لايقيم وزنا لطموحات الفرد. وهذا يؤدي ،بالضرورة ،الى ابتعادالفرد عن المجتمع ، أي الى اغترابه عنه ، و" الاغتراب قد يعني الشعور بالاختلاف بصورة تبعث على التوتر في وجود الآخرين "(٣) .

ان الآخرية تشكل قوة ضغط على الأنا"، وهذه الأنا" بشعورها الحاد ،غير قادرة على مواجهة الآخرية أو التصالح معها ، بسبب ضعفها ،فتنكفىء على ذاتها ، ويتعمق الاختلاف ؛ وبالتالي ،تصبح العلاقة قائمة على أساس توتر يتزايد بمقدار اتساع الفجوة بين الطرفين . بذلك ،تحيلنا عناصر النص بمستوياتها الدلالية التي شكلتها ،والثنائية الضدية التي انبثقت عنها الى ثنائية أخرى بين الشاعر كفرد ، والمجتمع . ومجموع هذه الثنائيات تنتج ، على مستوى النص ،وما يحيل اليه ،ردودفعل متفاوتة ،تنتج رغبة في ازالة أسباب الاختلاف ،تنتج توترا داخل النفس . و" التوتر نفسه نظام دينامي متكامل"(٤) تفرزه مختلف العلائق القائمة بين النص / الفرد / والمجتمع . وتمسي " الفجوة" بذلك كله ،متجسدة في وجدان الشاعر. تتناهبه فيها صراعات حادة تلخص في النهاية طبيعة العلاقة بين الفردوالمجتمع.

فاذا كان نص الماغوط قد أضاء لنا مسافات التوتر الفاصلة بين عناصره ،وسمح لنا بالتعرف على أحد مستويات التجربة الحياتية الذي نقلته الينا لغته ،فان " أدونيس " يذهب بنا الى مواجهة مزيد

من الوحدات اللغوية المتمايزة ،والتي يخلق انتظامها في بنية معينة توترا يغني حركية النص بدلالاته التي يفرزها .

يقول : "..جسد تقمص الشظايا يتجه الى ـ
ان يتقمص الموج
ينشطر فيه العالم
يلتحم ⟺ يعطي وقتا لما ـ
يجيء قبل الوقت
لما لا وقت له
يجوهر العارض ويغسل الماء
اقتربي أيتها الرياح
اجتمعي إليّ
أخلق بك
خلقا ←
هاهي الصورة التي سأخلق على مثالها
وهذه قبضتي . " (٥)

لابد أولا من تحديد العناصر التي يشكل ترابطها توترا تتمحور حوله الدلالات المتعددة التي تولدها كل عبارة في النص ؛ والتي تهدف،في النهاية ،الى تواصل هذه الدلالات فيما بينها لتطويع حركية النص عموما في اظهار مفهوم الفجوة ـ مسافة التوتر ،التي تساعد على تحريك نظام اللغة وخلخلة بنيانه ،وتحديد موقع العالم من مواجهة الصياغة الجديدة . بذلك يكون " التوتر " الذي تحدثه علائق النص جزءا لاينفصل ،بأية حال ،عن مجموعة المعطيات النهائية التي تفرزها دلالاته .

تقدم لنا بنيات النص خصائص مختلفة لحركة العناصر أفقيا وشاقوليا داخل العبارات المحددة :

١ ـ العبارة الأولى :

جسد تقمص الشظايا يتجه الى أن ـ
يتقمص الموج
ينشطر فيه العالم

تتكون هذه العبارة الطويلة ،كما نرى ،من ثلاث عبارات متكاملة ،تمحى بينها الفواصل لتشكل عبارة واحدة ، تنقل الينا طبيعة العناصر المختلفة والهادفة لايجاد مرتكز دلالي تتوحد عنده. وبالتالي ،تمهد حركة هذه العناصر الساعية للتجانس فيما بينها ،لخلق" التوتر" الذي لايمكن فصله عن طبيعة هذه الحركة . فيكون ،بذلك ،واحدا من أهم نتائج الاشعاع الدلالي التي تبثه .

في العبارة ،كما في النص ،يكون " الجسد " هو المحور الرئيس الذي يكتسب خصائص جديدة . ويتحدد بفعل يفيد معاني التحول والانتشار ـ " جسد تقمص الشظايا " أي صارها . والصيرورة انتقال من كائن موجود له صفات محددة ،قد تكون سابقة على وجوده ،الى ممكن جديد ،صفاته لاحقة له . والممكن الذي صاره الجسد مفارق لطبائع الكينونة التي يمكن أن يتسم بها. انه " الشظايا " وتفيد العنف والقوة ، وحركتها العامة ليست حركة أفقية ثابتة ، وانما هي حركة متغيرة ،مجالها الجهات ، بمعنى آخر ، انها حركة اشعاع تتوزع بقوتها الذاتية على محاور متقاطعة. من هنا ،تبدو حركة الجسد حركة غيرطبيعية توحي بمفارقة واضحة مع الواقع ، تساعد مع التفريعات اللاحقة لها في خلق مسافة التوتر بين عناصر النص ومكوناته ، تستمر حركة الجسد بالتنامي حتى يأخذ بعده الذي يطمح اليه . فالشظايا التي تحول اليها ليست أكثر من مقدمة لتحولاته القادمة. فهو " يتجه الى أن يتقمص الموج " والموج حركة سرمدية دائمة لاتركن للسكون أبدا. وتحمل مفردة " الموج " معاني غنية ، اذ انها مرتبطة بمفردة " الماء"،والماء رمز للخصب والعطاء . وهو واحد من أهم عناصر

الوجود . بذلك ،تتجه الصياغة الشعرية لاعطاء " الجسد " صفاته الدينامية الجديدة ،المعطاءة . كما تفيد العبارة الثالثة " ينشطر فيه العالم " معنى التحول أيضا، فالانشطار هو انقسام جزء الى مجموعة أجزاء". والعالم " هو تعدد " الجسد" توزعه وانتشاره . من هنا ،تكون حركة الجسد في العبارة تهدف الى كسر كل الأطر التي يمكن أن تحد من انطلاقه وتحولاته . وربما ساعدت البنية باعتبارها "نظام تحويلات "(٦) في جعل العلاقات بين العناصر اللغوية مفتوحة ،لضمان حرية حركتها التي تهجس بالتحول ،مما نتبينه من حركة الأفعال المضارعة التي لاتعرف السكون ،ومن انعدام موءشرات الفعل أو أدوات الربط بين العبارات ،مما يدل على أن الحركة والتحول كلاهما دائم لايعرف مجالا للتوقف . فجأة يبدأ "التوتر" بانتقالنا الى العبارة الجديدة التي يشكل الفعل المضارع أساسا لها ،في الوقت الذي لايفصله عن السياق السابق أي موءشر. ويمكن أن يعامل باعتباره جزءا من النمو الطبيعي على المحور التراصفي للعبارة السابقة ؛ ولكنه يشكل نقيضا في حركته العامة :

يلتحم ⟺ يعطي وقتا لما يجيء ـ
قبل الوقت
لما لا وقت له

تعود الأجزاء الى بعضها ، ويتكامل الجسد ، يصبح قوة حقيقية متأهبة للقيام بالفعل ، وتصير الحركة استجماعا لما صاره بعد أن شحنت بأسباب القوة التي تنامت بتلقائيتها الذاتية . ان هذا الانتقال المفاجيء لحركة الجسد في سياق الفعل المضارع " يلتحم " يشير الى تعميق مفهوم الفجوة ـ مسافة التوتر . ويسمح بالتالي ،للسياق اللغوي الذي يشكل النص والذي يضم وحدات لغوية متنافرة الدلالات بأن يوضع في مسارات توقع ومراهنة حول احتمالاته التي يفرزها . من هنا، تبرز مهمة "التوتر " في اغناء النص باعتباره لغة تقول مالم تعتد على قوله . وبدءا من الفعل " يلتحم" تبدأ مسافة "التوتر" بالبروز مع حركة الجسد الجديدة ، المتمثلة بالأفعال اللاحقة،وما تستتبعه . ان حركة " الالتحام " تعني شحن طاقات هائلة ،يبدأ السياق الجديد بافراغها ((يعطي وقتا لما يجيء قبل الوقت)) والوقت ، امتداد زمني،مسافة تمنح لوقت ساكن ،جامد ،لامسافة له . وهي تمهد لفعل آخر يرغب الجسد بممارسته، هذا الفعل يثير فينا عددا من التوقعات التي تضعنا على عتبته . الوقت الحالي ، وقت محنط ،يموت فيه الفعل . الوقت الجديد يحمل اشراقة الجسد . اذن ،هو قادر على استيعاب حركته وتوجيهها.هل ينسحب كلامنا على الواقع الاجتماعي الذي كان تجاوزه يشكل هاجس أدونيس الأول؟ ولكن ألا نرى أيضا أن " أدونيس" يبالغ بشكل كبير ،بتأكيده على قيمة الفرد " الجسد " وقدرته الهائلة على الفعل . ان هذا يسمح لنا بالقول : ان طرفين آخرين تقوم بينهما فجوة ـ مسافة توتر ،هما الشاعر والمجتمع ، انسحب عنهما مسافة توتر أخرى على صعيد الشعرالمتمثل ببنيته اللغوية . وإلا ماذا تعني الفاعلية الخارقة لجسد أدونيس : يجوهر العارض ويغسل الماء .

ان أدونيس ينقلنا في هذا السياق الى أسطورة الفعل ،من كونه فعلا يمارس، فيقلب المفاهيم ،وتكون سلطته ،بذلك ،لاتنازع . ان جوهرة العارض تحمل الينا

مجد الفعل وسلطته المطلقة التي توءسس للأشياء قوتها الذاتية الخالصة. وأدونيس ،في هذا السياق ،ينقل الفعل من مجال الواقع الى مجال الشعر ،يمارس عن طريقه ،سلطته التي أباها الواقع وأبعدها ، فكانت اللغة هي واقعة البديل الذي أطلق فيه قواه ،يحرك فيه كوامنه ،ويثيرها. قاصدا ،بذلك ، أن اللغة هي الواقع المفترض. فاذا كانت اللغة نفسها ((هي أداة متكاملة لبناء نظام متكامل،هو النحن .)) (٧) موءدية بذلك وظيفتها المعرفية اللائقة ، فان أدونيس أراد أن يغير " النحن " عن طريق اللغة ذاتها وليس العكس. من هنا ،تكون جدلية الشعر / الواقع ،عنده مقلوبة ، ويكون الفعل في اللغة أولى منه في الواقع .

عند هذه النقطة تكتمل صفات الجسد، ويسود النص نوع من التجانس ، أوجدته الصيغة المضارعة للأفعال المتتالية .ويبدو " التوتر " متماشيا مع حركة النص ، آخذا البعد الانسيابي له . ولكن مايلبث انسياب النص هذا بالانكسار دفعة واحدة ، خالقا فجوة دلالية جديدة ـ مسافة توتر. دفعتها الينا بنية التعبير اللاحقة مع صيغة فعل الأمر :

اقتربي أيتها الرياح
اجتمعي إليّ

التوتر ،هنا ،نشأ من تحولات حكمت حركية النص عموما بمستوياته المتعددة . انه جاء : أولا ـ على مستوى التركيب البلاغي ـ بالانتقال من الخبر الى الانشاء، وثانيا ـ على مستوى التركيب النحوي ـ من المضارع الى الأمر. ان الانكسار القوي لحركة البنية ،والفاعلية الجديدة لعناصرها المتمثلة ،ليس في مخاطبة رياح وحسب ،وانما في صيغة الأمر التي وجهها اليها . وتشير الى احتمالات النص الغنية التي تنفتح مع الصياغة الجديدة للغة ،حيث تكسبها طاقتها الاستثنائية المتحفزة . ان الصيغة الجديدة هي صيغة مباشرة أيضا ،تعبر عن القوة الخلاقة ، المسيطرة والمتجسدة في الأمر ،الفاعل الجديد الذي تسير اليه الأشياء مطواعة ، وتركن لقدرته ، ليبدأ ،بعد ذلك، بتشكيلها بالصورة التي يرغبها .

ان التوتر نشأ في نص أدونيس من الانكسارات التي حكمته ،والتي خلخلت انسياباته ،ووسعت من حدودها ،فمهدت في نقل دلالات النص الى الخارج الى حيث العالم يتفاعل مع الشعر ،فيكشف لنا ،عن طريقه ،مزيدا من سرائره الدفينة .

ونرى في ـ نصوص " أنسي الحاج " الشعرية مجالا أوسع لتكون الفجوة الدلالية ـ مسافة التوتر . وربما يعود ذلك الى طبيعة الشاعر التي تكون الغلبة للاشعوره . حيث اللغة تتشكل دفقات من الخلق غير محددة .

يقول :

" أرخيتني ،ياقشة البحر ،لم ـ
ترخيني ،لافرق .
أغرق فهذا هو . أغرق أو أحلق ـ
، أو أنام . لاوجهة لا
وجهة ! أسرطن العافية ، أهتك ـ
الستر عن غد السرطان .
حرية ! . " (٨) .

يقوم هذا النص ،كما في القصيدة كلها ،على خلق مسافة توتر بين العناصر، وربما كان الاختلاف الذى يقوم بين الوحدات اللغوية المشكلة لنصوص" الحاج" سمة عامة فيها ،يعود بالدرجة الأولى الى حدة شعوره ،والى الحيرة التي تنتابه

في علاقته مع الواقع ،ومردها ،ربما يعود الى العلائق غير المنطقية التي تحكم صلته بهذا الواقع وتحددها ،والى وجهة نظره ازاءها . ان هذا الموقف غير الثابت ينسحب على نص " الحاج" فيظهره مفككا ، سمة التناقض غالبة عليه .

يبدأ هذا النص بالاستفهام ،والاستفهام تساؤل موزع في فضاء من الشك حول امكانية توفر جواب له . والفعل الذي يلي الاستفهام مشكوك في قيمته كفعل قادر على انجاز الجواب (٩) . يؤكد هذا الشك أيضا ضحالة فاعل الانجاز " قشة البحر " من كون امكانياتها مستنفدة . هكذا يبدأ التوتر في النص بالتنامي مع ماتحيل اليه المفردات المكونة له (المفارقة التي تتبع عملية الانقاذ ـ الشك في كون الانقاذ حاصلا ـ الاستفهام غير المحدد ـ طبيعة الموقف الاجتماعي الذي تتقصد اللغة التعبيرعنه ـ عنصر الدهشة الذي يوجده مستوى المنقذ ـ موقع الشاعر الذي لم يبق له من آماله وقواه مايعينه على النهوض ـ نوسان الرغبة في الانقاذ وعدمه .) كل هذه القضايا تواجهنا دفعة واحدة ،وتضعنا أمام فسحة من الاحتمالات ،تفيد في مجموعها أن يأسا يشل فاعلية الشاعر ويكبح جماحها .

في الحركة الجديدة للنص" أغرق فهذا هو " نلاحظ موقفا عدميا يعمق مفهوم اليأس الذي تبلور في الحركة الأولى. وهو موقف يضعنا أمام فعل يتضمن موتا حقيقيا . حركة الفعل مع العناصرالواقعة في سياقه تثير الاستغراب من كونه يشكل رغبة انجاز لدى الشاعر . انه الاستغراب ذاته الذي يحافظ على تعميق مسافة التوتر التي تشكلها دلالات النص .

ان التوتر هنا لايستوطن بنية النص وحسب، وانما يكشف لنا وجودا آخر للشاعر، نعاين من خلاله موقعه من محيطه ،وعلاقة التضاد التي تحكمه . وهي علاقة تناقض صريحة ،تجهد اللغة نقله الى عالمها . معبرة ،بذلك ،عن البعد الثقافي للتجربة الاجتماعية المعيشة التي يتوزع فيها الشاعر بين قطبين رئيسين : ذاته ، كفرد له حضوره موءكد ،من كونه محورا أساسيا لعلائق متباينة ـ والمجتمع ، كسلطة تمثل عامل كبح وهيمنة ،وترغب في صهر مختلف الفعاليات الأخرى التي تتحرك في دائرتها ،بما يتفق ونزوعها السلطوي . هكذا تكون العلاقة بينهماعلاقة شد ،توتر ، انفعال . والانفعال هو" هزة عاطفية في النفس" (١٠) تهدف النفس ،من خلاله ، اما للتحرر من سلطة المجتمع ، أو لاقامة نوع من المصالحة معه . وفي نص " الحاج " لانلمح أي موءشر يمكن أن تبنى عليه هذه المصالحة ، مما يجعل التوتر بينهما على أشده . وإلّا كيف نفهم الرفض " الهذياني " لكل مواقع الشخصية ، في قوله :

أغرق أو أحلق، أو أنام .لاوجهة لا وجهة !

ألا تشير حركة الأفعال وهي تتناقض في المعطيات التي تفرزها الى مجانية الحياة عندما تفرض على الشاعر المشاركة ، قسرا ،في خصائصها ؟ أم أن التعبير في سياق النفي،يحيل الى العدمية الاجتماعية لفعاليته الذاتية التي أرادها مهمشة لدرجة الالغاء ؟ ألا يوءكد ذلك أيضا ، التشكيل الهندسي الذي بني النص على أساسه ؟ وأن النفي بـ"لا" اضافة الى تكراره ،فانه شكّل نهاية سطر،مما يجعل امكانات النفي مفتوحة وغير محددة ،وأن

توقعات لانهائية يمكن أن يولدها التشكيل المذكور . ان أي جواب يندرج في دائرة امكانات النفي وتوقعاته يثير عنصر المفاجأة عند الآخر . والمفاجأة ،فعل غرابة يلغي معادلة التوازن و الاتساق التي يمكن أن تتحقق بين أطراف متعددة ، ليخلق في الوقت ذاته ،نوعا من الانقطاع تتحول فيه العلائق الى مفارقات حادة تجسد مفهوم الفجوة ـ مسافة التوتر . وتدفعها بشكل تحكم فيه مسار النص كاملا ،وما يمكن أن يحيل اليه .

في التشكيل الأخير للنص " أسرطن العافية ، أهتك الستر عن السرطان" تطرح مجموعة قضايا : يتصالح" الحاج" مع اللغة ،يمارس عليها هيمنته ـ اللغة ،هنا ، مكافىء نفسي للشاعر ،بديل له ،تأخذ مكان الواقع . في الواقع ،الشاعر ضائع ، مشرد ،لامنتم . وبالتالي،مرمي خارج دائرة الفعالية .فعاليته على صعيد اللغة أشد،لأن سلطته عليها أقوى . نتبين ذلك من انفعل " أسرطن" الذي خلقه " الحاج" وأظهره الى الوجود بالصورة التي أرادها له . اذن ،على مستوى اللغة ،هناك مصالحة ،بمعنى آخر ، انها علاقة سيطرة تسمح للشاعر أن يكون الأقوى والأقدر على ممارسة الفعل البكر في اللغة على الأقل . ولكن ،ماذا عن المعاني النهائية التي يطرحها التشكيل الذي وضع الفعل في سياقه " أسرطن العافية" الذي اجتمع فيه ضدان ،يخرب الأول منهما الثاني ،وينسقه ؟ هل يمكننا اضافته الى الوحدات التركيبية السابقة ،من كونه يريد أن يعمق المفارقة بين الشاعر والواقع ،كما هو الحال بين اللغة نفسها؟ وهل يمكننا تبني رأي خالدة سعيد " في معرض كلامها عن " سرطان" أنسي الحاج هذا ، اذ تقول:"السرطان،رمز مزدوج: هو القدر المتوحش وهو وحدة الانسان في مواجهة هذا القدر . الوحدة ملازمة للانسان، وهي أشد ما تكون قسوة ورهبة على المصاب في وجدانه وجسده . المجنون والمريض أشد الناس وحدة ." (١١) بذلك،يحيلنا السرطان الى نفي الحياة عن الشاعر،التي هي محصلة طبيعية للشكل النهائي في العلاقة بينه وبين الواقع . أي الى انعدام المشاركة الفعالة من كونها تعمد الى المقاربة بين عناصر الفعل في الحياة .

ان الشاعر فقد نهائيا أي أمل له ، وبدا خلاصه مستحيلا، وبدت الفجوة التي تفصله عن الواقع غير قابلة للالتئام . من هذا الموقع ،لم يعد أمام الشاعر سوى الصراخ. فكانت" الحرية" آخر خيط يمكن أن يمسك به .صرخة قوية أعلنها وهو يغوص في أعماق العدم، حيث يتهاوى عنده كل طموح ،وتتلاشى كل فعالية .

على مستوى النص ،تمثل مفردة "الحرية" في السياق الذي وضعت فيه ، انكسارا عنيفا في بنيته . كما تمثل محاولة نهائية للخروج من ثنائية التناقض التي مثلتها حركته، وربما استطاعت أن تبلور مفهوم التوتر الذي حاولنا ايضاحه ،بما حققته من اضطراب مأساوي،تفجر في حركة النص الأخيرة ،دافعة ،في الوقت ذاته ،مسافة التوتر الى الذروة؛ حتى لكأن "الحرية" قد أمست عالما جديدا متكاملايقوم في طرف يناهض كل العوالم التي مثلت بوجودها الحقيقي والمفترض،حدود تناقض ومغايرة مع الشاعر. ان الموقف النهائي الذي ترتب على النص من جرّاء القضايا التي حملها ،يشير الى جوهر الفرد البرجوازي،والى الأزمة الاجتماعية التي يواجهها ،باعتباره رافضا للأعراف والتقاليد ،راغبا في توكيد ذاته

وحيازة كل شيء دون أن تتوافر لديه امكانية الصدام والمجابهة بسبب هروبه وهشاشة موقعه ،مما يفسح المجال لانكفائه وتقلص فعاليته .

نخلص من ذلك كله الى أن التوتر انما ينشأ داخل النص من التقاطعات التي تكونت منها بنيته . ومن علائق التضاد المتمثلة بانكسار سياقه اللغوي،وما يحمله الينا من اضطراب في مفاهيم الصيغ وعلائقها ، حيث تتحدد قيمة التوتر من كونه يساعد في تعميق دلالات النص ويعمل على تحريك مكامن الشعور لدى الشاعر والمتلقي على السواء.

الإحالات

١- الماغوط ،محمد: الآثار الكاملة ، ص ١٥٣ .

٢- مجلة مواقف: العدد ٤٦ ربيع١٩٨٣ ، ص ٩٠ .

٣- شاخت ،ريتشارد: الاغتراب ،ترجمة كامل يوسف حسين ،ص ٢١٧ .

٤- سويف ،مصطفى: الأسس النفسية للابداع الفني ،ص ٣٠٦ .

٥- سعيد ،علي أحمد :مفرد بصيغة الجمع ص ٧٢ - ٧٣ .

٦- بياجيه ،جان : البنيوية ،ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري ،ص ٨١ .

٧- سويف،مصطفى: الأسس النفسية للابداع الفني ،ص ٣٠٣ .

٨- الحاج ، أنسي : لن ،ص ١١٢ .

٩- الجرجاني،عبد القاهر: دلائل الاعجاز في علم المعاني،ص ٨٧ وما يليها .

١٠- سويف ،مصطفى : الأسس النفسية للابداع الفني ،ص ٢٠٩+٢١٢ وهو منقول عن هنري برغسون .

١١- سعيد ،خالدة : حركية الابداع ،ص ٦٩ .

المراجع

١- بياجيه ،جان : البنيوية ،ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري ،منشورات دار عويدات،بيروت،ط١/١٩٧١+ط٣/١٩٨٢.

٢- الجرجاني،عبد القاهر :دلائل الاعجاز في علم المعاني،طبع دار المعرفة ،بيروت ١٩٧٨ .

٣- الحاج، أنسي : لن - شعر ،طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت ،ط٢ / ١٩٨٢ .

٤- سعيد ،خالدة /دكتورة : حركية الابداع - دراسات في الأدب العربي الحديث ، طبع دار العودة ،بيروت،ط١/١٩٧٩ .

٥- سعيد،علي أحمد" أدونيس" مفرد بصيغة الجمع - شعر ،طبع دار العودة ،بيروت ،دون تاريخ .

٦- سويف ،مصطفى/ دكتور : الأسس النفسية للابداع الفني ،طبع دار المعارف، القاهرة ،ط٤ ،دون تاريخ .

٧- شاخت ،ريتشارد: الاغتراب ،ترجمة كامل يوسف حسين ،طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ط ١ ١٩٨٠ .

٨- مجلة "مواقف" :العدد ٤٦ ربيع١٩٨٣ .

٩- الماغوط،محمد: الآثار الكاملة ،طبع دار العودة ،بيروت ،ط٢ /١٩٨١ .